

٣٠١ - قد علم أن المعارض للكلام معارض له من الجهة التي منها تفصيل آخر ، في العبارتين تري أنهما يوصف بأنه فصيح وبليغ ، ومتخير اللفظ جيد السبك ، الأوصاف التي نسبوها إلى اللفظ . وإذا كان هذا هكذا ، أتى به كان معارضاً ما هو ؟ أهو أن يجيء بلفظ فيضعه مكان لفظ آخر ، أن يقول بدل « أسد » « ليث » ، وبدل (بَعَدَ) (نَأَى » ، ومكان (قرب) و دنا » ، أم ذلك ما لا يذهب إليه عاقل ولا يقوله من به طرق ؟ (١) كيف ؟ ولو كان ذلك معارضة لكان الناس لا يفصلون بين الترجمة والمعارضة ، فسر كلاماً معارضاً له ، وإذا بطل أن يكون جهة للمعارضة ، الواضع نفسه في هذه المنزلة / معارضاً على وجه من الوجوه ، عَلِمْتَ أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني ، وإلى ما يدل عليه بالألفاظ ، دون الألفاظ أنفسها / ، لأنه إذا لم يكن في القسمة إلا المعاني والألفاظ ، وكان لا يُعقل تعارض في الألفاظ المجردة ، (٢) إلا ما ذكرت ، لم يبق إلا أن تكون المعارضة معارضة من جهة ترجع إلى معاني الكلام المعقولة ، دون ألفاظه المسموعة . وإذا عادت المعارضة إلى جهة المعنى ، وكان الكلام يعارض من حيث هو فصيح وبليغ ومتخير اللفظ ، حصل من ذلك أن ه الفصاحة ، و (البلاغة) و (تخير اللفظ) عبارة عن خصائص ووجوه تكون معاني الكلام عليها ، وعن زيادات تحدث في أصول المعاني ، كالذي أريتكم فيما بين (زيد كالأسد) و (كأن زيدا الأسد) ، ٣٠٢ - وأعلم أنك لا تشفى العلة ولا تنتهي إلى ثلج اليقين ، حتى تتجاوز حد العلم بالشيء مجملاً ، إلى العلم به مفصلاً ، وحتى لا يقنعك إلا النظر في زواياه ، والتغلغل في مكانه ، وحتى تكون كمن تتبع الماء حتى عرف منبعه ، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يُصنع فيه إلى أن يعرف مَبْنِيَّتَهُ ، وَمَجَرَى عُرُوق الشجر الذي هو منه . وإنما لئراهم يقيسون الكلام في معنى المعارضة على الأعمال الصناعية ، كنسج الديباج وصوغ الشنف والسوار وأنواع ما يصاغ ، (١) وكل ما هو صنعة وعمل يد ، بعد أن يبلغ مبلغاً يقع التفاضل فيه ، ثم يعظم حتى يزيد فيه الصانع على / الصانع زيادة يكون له بها صيت ، وهذا القياس ، وإن كان قياساً ظاهراً معلوماً ، وكالشيء المركوز في الطباع ، حتى ترى العامة فيه كالخاصة = فإن فيه أمراً يجب العلم به : وهو أنه يتصور أن يبدأ هذا فيعمل ديباجاً ويُبدع في نقشه وتصويره ، فيجيء آخر ويعمل ديباجاً آخر مثله في نقشه وهيئته وجملته صفته ، حتى لا يفصل الرائي بينهما ، ولا يقع لمن لم يعرف القصة ولم يُخبر الحال إلا أنهما صنعة رجل واحد ، و خارجان من تحت يد واحدة . وهكذا الحكم في سائر المصنوعات ، / كالسوار يصوغه هذا ، ويجيء ذاك فيعمل سواراً مثله ، هي ، (٢) حتى لا يغادر منها شيئاً البتة . ٣٠٣ - وليس يُتصور مثل ذلك في الكلام ، لأنه لا سبيل إلى أن تجيء إلى معنى بيت من الشعر ، أو فصل من النثر ، فتؤديه بعينه وعلى خاصيته وصفته بعبارة أخرى ، (١) حتى يكون المفهوم من هذه هو المفهوم من تلك ، لا يخالفه في صفة ولا وجه ولا أمر من الأمور . ولا يغرنك قول الناس : (قد أتى بالمعنى بعينه ، وأخذ معنى كلامه فأداه على وجهه) ، فإنه تسامح منهم ، والمراد أنه أدى العرض ، فأما أن يؤدي المعنى بعينه على الوجه الذي يكون عليه في كلام الأول ، حتى لا تَعُول ههنا إلا ما عَقَلْتَهُ هناك ، وحتى يكون حالهما في نفسك حال الصورتين المشتبهتين في عينك كالسوارين والشنفين ، ففي غاية الإحالة ، وظن يقضي بصاحبه إلى جهالة عظيمة ، وهي أن تكون الألفاظ مختلفة المعاني إذا فُرقت ، ومُتَّفَقَتها / إذا جمعت وألف منها كلام . وذلك أن ليس كلا منا من فيما يفهم من لفظتين مفردتين نحو قعد » و « جلس » ، ولكن فيما فُهِم مجموع كلام ومجموع كلام آخر ، نحو أن تنظر في قوله تعالى : (وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوة) (سورة البقرة : ١٧٩) ، وقول الناس : (قتل البعض إحياء للجميع) ، (٢) فإنه وإن كان قد جرت عادة الناس بأن يقولوا في مثل هذا : إنهما عبارتان معبرهما (واحد) ، فليس هذا القول قولاً يمكن الأخذ بظاهره ، الكتابة ٣٠٤ - الكلام على ضربين : ضَرْبٌ أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن « زيد » مثلاً بالخروج على الحقيقة ، فقلت : (خرج زيد) ، وبالاتفاق عن (عمرو) فقلت : عمرو منطلق) ، وعلى هذا القياس . = وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معنى الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالةً ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على (الكناية » و « الاستعارة » و « التمثيل » ، وقد مضت الأمثلة فيها مشروحة مُستَقْصاةً . (١) أو لا ترى أنك إذا قلت : « هو كثير رماد القدر » ، أو قلت : « طويل النجاد » ، أو قلت في المرأة : (نووم الضحى) ، فإنك في جميع ذلك لا تُفيد غرضك الذي تعنى من مجرد اللفظ ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى ، على 0 سبيل الاستدلال ، معنى ثانياً هو غَرَضُكَ ، كمعرفتك من : كثير رماد / القدر) أنه مضيف ، ومن (طويل النجاد) أنه طويل القامة ، ومن « نووم الضحى » في المرأة أنها مترفة مخدومة ، لها من يكفها أمرها وكذا إذا قال : (رأيت أسداً) ، وذلك الحال على أنه لم يرد السبع ، علمت أنه أراد التشبيه ، وكذلك تعلم من قوله : (بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى » ، أنه أراد التردد في أمر البيعة واختلاف العزم في الفعل وتركه ، على ما مضى الشرح فيه . ٣٠٥ - وإذا قد عرفت هذه الجملة ، و المعنى » ، و (معنى تقول : « المعنى) ، و (معنى

(المعنى) ، تعنى بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ المعنى ، وهو فصل جيد والذي تصل إليه بغير واسطة = و (بمعنى المعنى) ، أن تعقل من اللفظ معنى ، ثم يفرض بك ذلك المعنى إلى معنى آخر ، كالذي فسرت لك ٣٠٦ - وإذا قد عرفت ذلك ، فإذا رأيتهم يجعلون الألفاظ زينة للمعاني وحلية عليها = أو يجعلون المعاني كالجواني ، والألفاظ كالمعارض لها ، (٢) وكالوشى المحبر واللباس الفاخر والكسوة الرائقة ، إلى أشباه ذلك مما يفهمون به أمر اللفظ ، ويجعلون المعنى ينبل به ويشرف = (٣) فأعلم أنهم يصفون كلاماً قد أعطاك المتكلم أغراضه فيه من طريق معنى المعنى ، (٤) فكفى وعرض ، ومثل واستعار ، ثم أحسن / فى ذلك كله وأصاب ، ووضع كل شيء منه فى موضعه ، وأصاب به شاكلته ، وعمد فيما كنى به وشبه ومثّل ، لما حسن مأخذه ، ودقّ مسلكه ، ولطفت إشارته ، وأن المعارض وما فى معناه ، ليس هو اللفظ المنطوق به ، ولكن معنى اللفظ الذى دللت به على المعنى الثانى ، قوله : فَإِنِّي ، جَبَانُ الْكَلْبِ مَهْزُولُ الْفَصِيلِ . الذى هو دليل على أنه مضاف ، فالمعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض والوشى والحلى وأشباه ذلك ، والمعاني الثانى التى يوماً إليها بتلك المعاني ، هي التى تكسى تلك المعارض ، وتزيّن بذلك الوشى والحلى . (١) بيت شعر ، وسيأتى بتمامه فى رقم : ٣٦٤ ، وما يك فى من عَيْبٍ فَإِنِّي . (٢) فى هامش : ج : حاشية هي من كلام عبد القاهر ، كما رجحت ، هذا نصها : وهنا نكتة ، وهى أن الوشى من الثياب يكون وشياً كان على اللابس ، أو كان قد خلع وترك . دلّوا بها على معان ثوان تكون وشياً وحلياً مادامت لباساً لتلك المعاني ، فإذا خلعت عنها ونظر إليها منزوعة منها ، لم تكن وشياً ولا حلياً . فلو قلت : (فصلان فلان [هزلى]) ، وأنت لا تكنى بذلك عن نحره أمهاتها للضيافة ، لم يكن معنى الوشى والحلى فى شيء . وكذلك يتغير الحال بأن تحوّل الشيء من ذلك عما كنوا به عنه ، (وَلَا أَبْنَعُ إِلَّا قَرِيبَةَ الْأَجَلِ فى صفة قصاب ، لم يكن من الحسن الذى هو له الآن فى شيء ، فاعرفه) . يقول أبو فهر : مكان النقط مطموس فى التصوير ، وسيأتى البيت الذى أنشده بعد قليل ، . لَا أُمْنَعُ الْعَوْدَ بِالْفِصَالِ وقوله أنها : و فصلان فلان [هزلى]) ، الكلب مهزول الفصيل . ٣٠٧ - وكذلك إذا جعلوا المعنى يُتَصَوَّر من أجل اللفظ بصورة ، ويبدو فى هيئة ، ويتشكل بشكل يرجع المعنى فى ذلك كله إلى الدلالات المعنوية ، ولا يصلح شيء منه حيث الكلام على ظاهره ، وحيث لا يكون كناية ولا تمثيل ولا استعارة ، (١) ولا استعانة فى الجملة بمعنى على معنى ، وتكون الدلالة على الغرض من مجرد اللفظ ، فلو أن قائلًا قال : (رأيت الأسد) ، وقال آخر : لقيت اللبى) ، لم يجز أن يقال فى الثانى أنه صور المعنى فى غير صورته الأولى ، ولا أن يقال أبرزه فى معرض سوى معرضه ، ولا شيئاً من هذا الجنس وجملة الأمر أن صور المعاني لا تتغير بنقلها من لفظ إلى لفظ ، حتى يكون هناك اتساع ومجاز ، وحتى لا يُراد من الألفاظ ظواهر ما وضعت له فى اللغة ، ولكن يشار بمعانيها إلى معانٍ آخر . ٣٠٨ - وأعلم أن هذا كذلك ما دام النظم واحداً ، فأما إذا تغير النظم فلا بد حينئذ من أن يتغير المعنى ، على ما مضى من البيان فى (مسائل التقديم والتأخير) ، (٢) وعلى ما رأيت فى المسئلة التى مضت الآن ، (٣) أعنى قولك : إن زيدا كالأسد) ، و (كأن زيدا الأسد) ، ذاك لأنه لم يتغير من اللفظ شيء ، وإنما تغير النظم فقط . وأما فتحك (إن) عند تقديم الكاف وكانت مكسورة / فلا اعتداد / بها ، لأن معنى الكسر باق بحاله . ٣٠٩ - وأعلم أن السبب فى أن أحوالوا فى أشباه هذه المحاسن التى ذكرتها لك على اللفظ ، أنها ليست بأنفس المعاني ، بل هى زيادات فيها وخصائص . ألا ترى أن ليست المزية التى تجدها لقولك : (كأن زيدا الأسد) على قولك و زيد كالأسد) ، لشيء خارج عن التشبيه الذى هو أصل المعنى ، (١) وإنما هو زيادة فيه وفى حكم الخصوصية فى الشكل ، نحو أن يُصاغ خاتم على وجهه ، وآخر على وجه آخر ، تجمعهما صورة الخاتم ، ويفترقان بخاصة وشيء يُعْلَم ، إلا أنه لا يُعلم منفرداً . ولما كان الأمر كذلك ، لم يمكنهم أن يطلقوا اسم المعاني على هذه الخصائص ، إذ كان لا يفترق الحال حينئذ بين أصل المعنى ، وبين ما هو زيادة فى المعنى وكيفية له وخصوصية فيه . فلما امتنع ذلك توصلوا إلى الدلالة عليها بأن وصفوا اللفظ فى ذلك بأوصاف يُعْلَم أنها لا تكون أوصافاً له من حيث هو لفظ ، كنحو وصفهم له بأنه لفظ شريف ، وأنه قد زان المعنى ، وأن له ديباجة ، وأن عليه طلاوة ، وأن المعنى منه فى مثل الوشى ، وأنه عليه كالحلى ، إلى أشباه ذلك مما يُعْلَم ضرورة أنه لا يُعنى بمثله الصوت والحرف . ثم إنه لما جرت به العادة واستمر عليه العرف ، وصار الناس يقولون اللفظ واللفظ = لز من ذلك بأنفس أقوام باب من الفساد ، (٢) وخامرهم منه شيء لَسْتُ أَحْسِن وصفه . ٣١٠ ومن الصفات التى تجدهم يجرونها على (اللفظ) ، ثم بيان فى استعمال و الملفظ . لا تعترضك شبهة ولا يكون منك توقف / فى أنها ليست له ، ولكن لمعناه ، قولهم : (لا يكون الكلام يستحق أسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك) = وقولهم : يدخل فى الأذن بلا إذن) ، فهذا مما لا يشك العاقل فى أنه يرجع إلى دلالة المعنى على المعنى ، وضع له فى اللغة . ذاك لأنه لا يخلو السامع من أن يكون عالماً باللغة وبمعاني الألفاظ التى يسمعها ، أو يكون جاهلاً بذلك . فإن كان عالماً لم يتصور أن يتفاوت حال الألفاظ معه ، جاهلاً كان ذلك فى وصفه أبعد

وجملة الأمر أنه إنما يتصور أن يكون لمعنى أسرع فهماً منه المعنى آخر ، إذا كان ذلك مما يُدرك بالفكر ، للكلام . وذلك محال في دلالات الألفاظ اللغوية ، لأن طريق معرفتها التوقيف ، والتقدم بالتعريف . أبين إشارة ، حتى يُخَيَّل إليك أنك فهمته من حاق اللفظ ، فيه عليك ، وسرعة وصوله إليك ، لا أُمْنِعُ الْعُودَ بِالْفِصَالِ ، ومن (الاستعارة » مثل قوله : وَصَدَرَ أَرَاخَ اللَّيْلِ عَاذِبَ هَمِّهِ ، ومن (التمثيل » مثل قوله : لا أَذُودُ الطَّيْرَ عَنْ شَجَرٍ قَدْ بَلَوْتُ الْمُرَّ مِنْ نَمَرِهِ (٣) - ٣١٢ وإن أردت أن تعرف ما حاله بالضد من هذا ، (٤) فكان منقوص القوة في تأدية ما أريد منه ، لأنه يعترضه ما يمنعه أن يقضي حق السفارة فيما بينك وبين معنك ، ويوضح تمام الإيضاح عن مغزاك ، العباس بن الأحنف : سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا وَتَسْكُبَ عَيْنَايَ الدُّمُوعَ لِتَجْمُدَا (٥) بدأ فدل بسكب الدموع على ما يوجب الفراق من الحزن والكمد ، فأحسن وأصاب ، لأن من شأن البكاء أبداً أن يكون أمانة للحزن ، وأن يجعل دلالة عليه وكناية عنه ، كقولهم : (أبكاني وأضحكني) ، ثم ساق هذا القياس إلى نقيضه ، فالتمس أن يدل على ما يوجب دوام التلاقي من السرور بقوله : (لتجمدا) ، وظن أن الجمود يبلغ له في إفادة المسرة والسلامة من الحزن ، ما بلغ سكب الدمع في الدلالة على الكآبة والوقوع في الحزن = ونظر إلى أن الجمود خُلُو العين من البكاء وانتفاء الدموع عنها ، وأنه إذا قال (لتجمدا) ، فكأنه قال : (أحزن اليوم لثلاً أحزن غداً ، وتبكي عيناى جهدهما لثلاً تبكيأ أبداً) / ، وغلط فيما ظن . وذلك أن الجمود هو أن لا تبكي العين ، مع أن الحال حال بكاء ، ومع أن العين يُراد منها أن تبكي ، ويُستراب في أن لا تبكي ، (٦) ولذلك لا ترى أحداً يذكر عينه بالجمود إلا وهو يشكوها ويذمها وينسبها إلى البخل ، صاحبها على ما به من الهم ، ألا إنَّ عَيْنَا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعَهَا لَجْمُودٌ فَأَتَى بِالْجَمُودِ تَأْكِيداً لِنَفْيِ الْجُودِ ، ومحال أن يجعلها لا توجد بالبكاء وليس هناك التماس بكاء ، لأن الجود والبخل يتقضيان مطلوباً يبذل أو يُمنع ، ولو كان الجمود يصلح لأن يراد به السلامة من البكاء ، ويصح أن يدل به على أن الحال حال مسرة وحبور ، لجاز أن يُدعى به للرجل فيقال : (لا زالت عينك جامدة » ، كما يقال : (لا أبكى الله عينك) ، وذلك مما لا يُشْكُ في بطلانه وعلى ذلك قول أهل اللغة : (عين / جَمُودٌ ، لا ماء فيها ، وسنةٌ جمادٌ ، لا مطر فيها ، وناقة جماد ، لا لبن فيها) ، وكما لا تُجْعَلُ السنة والناقة جماداً إلا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقة لا تسخو بالدر ، كذلك حكم العين لا تُجْعَلُ (جَمُوداً) إلا وهناك ما يقتضى إرادة البكاء منها ، وما يجعلها إذا بكت محسنة موصوفة بأن قد جادت وسَخَتْ = وإذا لم تَبْكْ ، ٣١٣ - فإن قيل : إنه أراد أن يقول : (إني اليوم أتجرع غصص الفراق ، وأحمل نفسي على مره ، وأحتمل ما يُؤدِّيني إليه من حزن يفيض الدموع من عيني ويسكبها ، لكى أتسبب بذلك / إلى وصل يدوم ، ومسرة تتصل ، حتى لا أعرف بعد ذلك الحزن أصلاً ، ولا تعرف عيني البكاء ، وتصير في أن لا ترى باكيةً أبداً ، كالجمود التي لا يكون لها دمع » . (١) فإن ذلك لا يستقيم ولا يَسْتَتَبُّ ، لأنه يُوقَّع في التناقض ، ويجعله كأنه قال : (أحتمل البكاء لهذا الفراق عاجلاً ، لأصير في الآجل بدوام الوصل واتصال السرور في صورة من يريد من عينه أن تبكى ثم لا تبكى ، لأنها خلقت جامدة لا ماء فيها » ، وذلك من التهافت والاضطراب بحيث لا تنجح الحيلة فيه .

وجملة الأمر أنا لا نعلم أحداً جعل جمود العين دليل سرور وأمانة غبطة ، وكناية عن أن الحال حال فرح . فهذا مثال فيما هو بالضد مما شرطوا = من أن لا يكون لفظه أسبق إلى سمعك ، من معناه إلى قلبك = لأنك ترى اللفظ يصل إلى سمعك ، وتحتاج إلى أن تَخُبُّ وتُوضع في طلب المعنى . ويجرى لك هذا الشرح والتفسير في (النظم » كما جرى في (اللفظ) ، لأنه إذا كان النظم سوياً ، والتأليف مستقيماً ، كان وصول المعنى إلى قلبك ، تلو وصول اللفظ إلى سمعك . وإذا كان على خلاف ما ينبغي ، وصل اللفظ إلى السمع ، وبقيت في المعنى تطلبه وتتعب فيه ، التعقيد الذي قالوا : « إِنَّهُ يَسْتَهْلِكُ / المعنى » . ٣١٤ - وأعلم أن لم تضيق العبارة ولم يقصر اللفظ ولم يتعلق الكلام في هذا الباب ، (١) إلا لأنه قد تناهى في الغموض والخفاء إلى أقصى الغايات ، وأنت لا ترى أغرب مذهباً ، وأعجب طريقاً ، وأحرى بأن تضطرب فيه الآراء ، منه . وما قولك في شيء قد بلغ من أمره أن يُدعى على كبار العلماء / أنهم لم يعلموه ولم يفتنوا له ؟ فقد ترى أن البحتری قال حين سئل عن مسلم وأبي نواس : أيهما أشعر ؟ فقال : أبو نواس . فقيل : فإن أبا العباس ثعلباً لا يوافقك على هذا . فقال : ليس هذا من شأن ثعلب وذويه من المتعاطين لعلم الشعر دون عمله ، إنما يعلم ذلك من دفع في مَسَلِّكَ طَرِيقَ الشعر إلى مضايقه وأنهى إلى ضروراته . ٣١٥ - ثُمَّ لم ينفك العالمون به والذين هم من أهله ، من دخول الشبهة فيه عليهم ، ومن اعتراض السهو والغلط لهم . روى عن الأصمعي أنه قال : كنت أشدو من أبي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر ، (٢) وكان يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الإعظام ، ثم يقولان : يا أبا مُعَادٍ ، ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ، ويسألانه ويكتبان عنه متواضعين له ، حتى يأتي وقت الزوال ، ثم ينصرفان . وأتياه يوماً فقالا : ما هذه القصيدة التي أحدثتها في سلم بن قتيبة ؟ قال : هي التي بلغتكم . قالوا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب . قال : نعم ، بلغني أن سلم بن قتيبة يتباصرُ بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف . قالوا : فأنشدناها يا أبا مُعَادٍ . بَكَرًا صَاحِبِي قَبْلَ الْهَجِيرِ إِنَّ ذَاكَ النَّجَاحَ فِي

التَّبْكِيرِ النِّجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ : بَكَرَا فَالْجَاحُ فِي التَّبْكِيرِ . كان أحسن . فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية فقلت : إن ذاك النجاح في التبكير ، كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت : (بكرنا فالنجاح) ، كان هذا من / كلام المؤلدين ، ولا يشبه ذاك الكلام ، ولا يدخل في معنى القصيدة . قال : فقام خَلْفُ قَبْلٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ (١) ، فهل كان هذا القول من خلف والنقد على بشار ، **الجملة** بما قبلها ٣١٦ - وأعلم أن من شأن (إن) إذا جاءت على هذا الوجه ، أن تُغْنِي وِإِذْ ، تغني غناء الغاء ، ، في ربط غَنَاءَ (الفاء) **العاطفة** مثلاً ، وأن تفيد من ربط الجملة بما قبلها أمراً عجبياً . فأنت ترى الكلام بها مُسْتَأْنَفٌ غير مُسْتَأْنَفٍ ، ومقطوعاً موصولاً معاً . أفلا ترى أنك لو أسقطت (إن) من قوله : (إن ذاك النجاح في التبكير) ، لم تر الكلام يلتم ، ولرأيت الجملة الثانية لا تتصل بالأولى ولا تكون منها بسبيل ، حتى تجيء بالفاء فتقول : (بكرنا صاحبي قبل الهجير ، فذاك النجاح في التبكير) ، فَعَنَّا ، وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ إِنَّ غِنَاءَ الْإِبِلِ الْحِدَاءُ (٢) فأنظر إلى قوله : (إن غناء الإبل الحداء) ، وإلى ملاءمته الكلام قبله ، وحسن تشبيهه به ، وإلى حسن تعطف الكلام الأول عليه . ثم أنظر إذا تركت (إن) فقلت : (فَعَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ ، غِنَاءُ الْإِبِلِ الْحِدَاءُ) ، كيف تكون الصورة ؟ وكيف ينبو أحد الكلامين عن الآخر ؟ وكيف يُشِيم هذا ويُعْرِق ذاك ؟ حتى لا تجد حيلة في اثتلافهما حتى تجتلب لهما « الفاء » فتقول : (فَعَنَّا وَهِيَ لَكَ الْفِدَاءُ ، فغناء الإبل الحداء) ، ثم تَعْلَمُ أَنَّ لَيْسَتْ الْأَلْفَةُ بَيْنَهُمَا مِنْ جِنْسٍ مَا كَانَ ، وَأَنَّ قَدْ ذَهَبَتِ الْأَنْسَةُ الَّتِي كُنْتَ تَجِدُ ، وَالْحُسْنُ الَّذِي كُنْتَ تَرَى . ١٧٨ 201 هِيَ الْبُرَّةُ ، وَالْأَسْقَامُ ، وَالْهَمُّ ، وَالْمُنَى ، وَمَوْتُ الْهَوَى فِي الْقَلْبِ مِنْ مِثْلِ الْمُبْرَحِ وَكَانَ الْهَوَى بِالنَّائِي يُمَحَى فَيَمْحَى ، وَحُبُّكَ عِنْدِي يَسْتَجِدُّ وَيَرْبَحُ / إِذَا غَيْرَ النَّاسِ الْمُحِبِّينَ لَمْ يَكِدْ رَسِيسُ الْهَوَى مِنْ حُبِّ مِثَّةٍ يَبْرَحُ قَالَ : فلما انتهى إلى هذا البيت ناداه ابن شبرمة : يَا غِيلَانَ ، أَرَاهُ قَدْ بَرَحَ ! قَالَ : فَشَقَّ نَاقَتَهُ وَجَعَلَ يَتَأَخَّرُ بِهَا وَيُفَكِّرُ ، (١) هكذا هنا « عن عبسة » ، وأرجح أنه خطأ ، عبد الصمد بن المعدل ، عن جده غيلان بن الحكم بن البخترى بن المختار ، كما في المراجع التالية ، و الكناسة) ، محلة بالكوفة ، كان الناس يجتمعون في سوقها . وشعر ذي الرمة في ديوانه ، الثاني : « وبعض الهوى بالهجر . » ، وهي أجود . قال : فلما انصرفت حدثت أبي ، (١) قال : أخطأ ابن شبرمة حين أنكر على ذي الرمة ما أنكر ، (٢) وأخطأ ذو الرمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة ، يراها) (سورة النور : ١٤٠ ، وإنما هو : لم يرها ولم يكد . ٣١٨ - وأعلم أن سَبَبَ الشبهة في ذلك أنه قد جرى في العرف أن يقال : « ما كاد يفعل » و « لم يكد يفعل » في فعل قد فُعِلَ ، على معنى أنه لم يفعل إلا بعد الجهد ، وبعد أن كان بعيداً في الظن أن يفعله ، (فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (سورة البقرة : ٧) ، فلما كان مجيء النفي في (كاد) على هذا السبيل ، توهم ابن شبرمة أنه إذا قال : (لم يكد رسيس الهوى من حب مية يبرح) فقد زعم : أن الهوى قد برح ، وليس الأمر كالذي ظناه ، فإن الذي يقتضيه اللفظ إذا قيل : « لم يكد يفعل » و « ما كاد يفعل » ، أن يكون المراد أن الفعل لم يكن من أصله ، ولا قارب أن يكون ، ولا ظَنُّ أنه يكون . وكيف بالشك في ذلك ؟ وقد علمنا أن كاد « موضوع لأن يدل على شدة قرب الفعل من الوقوع ، وعلى أنه قد شارف / الوجود . وإذا كان كذلك ، كان محالاً أن يُوجب نفيه وجود الفعل ، لأنه يؤدي إلى أن يُوجب نفي مقارنة الفعل الوجود وجوده ، (٤) وأن . ٣١٩ - وإذا قد ثبت ذلك ، فمن سبيلك أن تنظر . فمتى لم يكن المعنى على أنه قد كانت هناك صورة تقتضي أن لا يكون الفعل ، وحال يبعد معها أن يكون ، ثم تغير الأمر ، كالذي تراه في قوله تعالى : (فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (سورة البقرة : ٧) ، / فليس إلا أن تلزم الظاهر ، وتجعل المعنى على أنك تزعم أن الفعل لم يقارب أن يكون ، فضلاً عن أن يكون فالمعنى إذن في بيت ذي الرمة على أن الهوى من رسوخه في القلب ، وثبوته فيه وغلبته على طباعه ، بحيث لا يُتَوَهَّمُ عليه البراح ، وأن ذلك لا يقارب أن يكون ، فضلاً عن أن يكون ، كما تقول : (إذا سلا المحبون وفتروا في محبتهم ، لم يقع لي في وهم ، ولم يجر مني على بال : أنه يجوز على ما يشبه السلوة ، وما يعد فترة ، وينبغي أن تعلم أنهم إنما قالوا في التفسير : « لم يرها ولم يكد » ، فنفوا الرؤية ، ثم عطفوا « لم يكد » عليه ، وهنا سبيل « ما كادوا » في قوله تعالى (فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ) (سورة البقرة : ٧١) في أنه نفى مُعَقَّبٌ على إثبات ، كادت لا تكون ، ولكن / المعنى على أن رؤيتها لا تقارب أن تكون ،